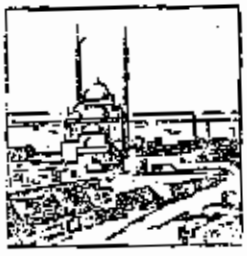

مسجد المدرسة العزية

بالجسر الابيض

مقدمة

نشر للمعهد الفرنسي بدمشق كتاب « ثمار المقاصد » ليوسف بن عبد الهادي عن مساجد دمشق « تحقيق وتعليق » الاستاذ أسعد طلس . وفي هذا المقال والمقالات التالية له تصحيح لبعض ما وقع فيه الاستاذ أسعد من أخطاء مع التعريف بهذه المساجد وتحقيق تاريخها ومواقعها .

يقول يوسف بن عبد الهادي في ص ١٥٤ ، ١٥٥ من كتاب « ثمار المقاصد » المحلة الحادية والعشرون (بالصالحية) : عارة الجسر وبها عدة مساجد ... الرابع : مسجد بالمدرسة العزية » اهـ

ويعلق على ذلك الأستاذ أسعد طلس بالهامش رقم ٣ ص ١٥٥ بقوله :

« هي القرية العزية البدرانية الحزية ولعل المؤلف (أي ابن عبد الهادي) أطلق عليها اسم مدرسة لأن واقفها وقف فيها درساً ومكتبة » اهـ

ثم ينقل الأستاذ بعد ذلك عن النعيمي [1] عبارة هذا نصها : « هي بالصالحية عند جامع الأفرم أنشأها حمزه بن موسى بن احمد بن الحسين بن بدوان ... المعروف بابن شيخ السلامية مدرس الحنبلية . قال ابن قاضي شهبه وقف درساً بتربته بالصالحية وكتباً وعين لذلك الشيخ زين الدين بن رجب توفي سنة ٧٦٧ هـ ودفن عند جده ووالده بتربته » اهـ

---

(١) هو عبي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن نعيم النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هجرية = ١٥٢١ ميلادية وهو مؤلف كتاب « تنبيه الطالب وارشاد الدارس لاحوال مواضع الفائتة بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس » ويشمل هذا الكتاب علاوة على ذلك كما ورد في صحيفة ١٥ وما بعده الاولى منه ما يتعلق بذلك من الربط : جمع رباط : والخوانق : جمع خانقاه : والترب والزوايا من ديار ما كنه وأوقات افتتاحها وتراجم واقفيها وذكر أوقافهم وشروطهم الخ . والنسخة التي اعتمدنا عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في مجلدين ضخمين ونحن نشكر المجمع السماح لنا بالانتفاع بهذا المؤلف القيم في دراستنا لمساجد دمشق ومعاهدها الاثرية .

﴿ التصحيح ﴾ — ونحن نقول للأستاذ أسعد ان ابن عبد الهادي حين أراد أن يتكلم عن مساجد وخلات الصالحية قال انها تبلغ أكثر من ثلاثين محلة (أنظر ص ١٤٥) كانت محلة الجسر هي الحادية والعشرين وحارة القوانيز وجامع الأقرع الخامسة والثلاثين وحارة الحواكير والروادين السادسة والثلاثين منها . ولا بد ان الاستاذ اطلع على كلام ابن عبد الهادي ووعاه جيداً حين نشر كتابه « المساجد » .

فلا ندري اذن كيف تكون المدرسة العزية بالجسر الأبيض هي نفسها المدرسة العزية بحارة جامع الأقرم ؟ واذا كان الاستاذ وجد بالنعيمي فصلاً عن مدرسة تسمى العزية أفلم يكن الأجدر به ان يبحث عن عزية يكون موقعها بالجسر لا بمحلة أخرى بعيدة عنها ؟

الثالث فالعزية التي يعنيها ابن عبد الهادي هي غير التربة العزية الدوادارية الخزية التي يشير إليها الأستاذ أسعد بهامشه ويقول عن النعيمي التعريف بها .

***

إننا اذا حصرنا الآثار والمعاهد التي وصل إلينا علمها وكانت تقع في محلة الجسر الأبيض لوجدنا من أعظمها الخانقاه [1] العزية :

يقول النعيمي بالجزء الثاني من الدارس ص ٣٧٠ في باب الخوانق (جمع خانقاه)

فصل الخانقا العزية بالجسر الأبيض [2] : هي قبلي دار عبد الباسط وغربي (المدرسة) المارداية ومدرسة أخرجا ابراهيم الأسعردي بغرب . قال ابن شداد : خانقاه على نهر ثورا انشاء الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب السلطنة بدمشق » اهـ

وقد أطال النعيمي في وليفة وقفها وذكر أعيان هذا الوقف وقال « لها تربة ومسجد ورباط بالجسر الأبيض »

والثالث عقد عنها فصلاً خاصاً بباب التربة تحت عنوان التربة الايدمرية الثانية (ج ٢ ص ٤٣١) . وقال « في الخانقاه العزية عند الجسر الأبيض أنشأها عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ » اهـ

---

(١) الخانقاه — جمعها خوانق أو خانقاهات : هي معهد ينزل فيه الصوفية والفقراء يتعبدون فيه ملحقة ببناء المدارس وبه حجرات لاقامة النزلاء فيه وله شيخ يتولى شئونه الدينية والتعليمية والادارية .

(٢) عن الخانقاه العزية . انظر (مخطوط) الدارس للنعيمي ج ٢ ص ٣٧٠ و (مخطوط) مقدمة الاطلال للشيخ عبد القادر بدران ج ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ (وهنه نسخة بالتصوير الشمسي بدائرة أوقاف دمشق) و (مخطوط) مختصر المنذرية لبدران نسخة دائرة أوقاف دمشق . و (مخطوط) المروج السندسية لابن كنان ص ١٩ و ص ٢٤ و ص ٢٩ (وهنه نسخة بالتصوير الشمسي بالمجمع العلمي العربي بدمشق) ودامسكر . لوزنجر روزنجر ج ٢ ص ٢١٥ . وسوفير (المجلة الاسيوية) مجلد ٥ ١٨٩٠ ص ٢٨٤ وهامش ٧٩ ص ٣٠٦ — ٣٠٧

ونقول أن بقاء هذه المدرسة وانطفاءه وارباط والتربة كانت موجودة حتى أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، فقد زارها ماكس فان برشم العالم الأثري الشهير ونقل النقش التاريخي الذي كان مفروضاً عليها باسم ايدمر الظاهري [1] وكان واقعاً على يسار الصاعد من دمشق الى الصالحية بجوار الجسر الأبيض على نهر ثورا

كما ان الشيخ عبدالقادر بدران [2] وصفها في مختصر كتابه المنادمة بقوله :

« وهي الآن خربة ولم يبق منها سوى القبة وهي بجانب الجسر من الغرب » اهـ

ونقول نحن ان ذلك جميعه قد زال الآن وأصبح موضعها أبنية مستحدثة .

***

من هو الامير عز الدين ايدمر الظاهري

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٧٠ جـ ١٣ ص ٢٦١ :

« وفي أواخر المحرم (سنة ٦٧٠) ركب السلطان الظاهر بيبرس في نفر يسير من الخاصكية والامراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك واستصحب نائبها معه إلى دمشق فدخلها في ثاني عشر صفر ومعه الامير عز الدين ايدمر نائب الكرك فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين اقوش النجيبي في رابع عشر صفر .. الخ »

ويقول العلموي [3] في مختصر الدارس ص ٩٩ / ١٠٠

« ولم يزل بدمشق نائباً الى ان مات الظاهر وولى ابنه السعيد فاستمر ايدمر في نيابة دمشق . ولما جاءه السعيد وتغيرت خواطر الأمراء عليه وطلبوا منه اعياد الخاصكية فلم

---

(١) انظر هامش رقم ٧٩ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ بالمجلة الآسيوية مجلد ١٨٩٥ وفيه ترجمة هذا النقش

(٢) هو الشيخ عبد القادر بدران الدومعي الدمشقي أصله من قرية دوما بجوار دمشق وكان يزل بدار الحديث الاشرفية شرقي القلعة بالصالحية وفيها ألف كتابه الشهير « منادمة الاطلال ومسامرة الخيال » في آثار دمشق والموجود منه في العالم نسخة وحيدة بمصر بالمكتبة التيمورية . وقد أهدى منها المرحوم العلامة احمد تيمور باشا نسخة بالتصوير الشمسي لدائرة أوقاف دمشق هي التي اعتمدت عليها في أبحاثي أثناء وجودي بدمشق . وقد توفي ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م . وقد كنت علمت وأنا بدمشق أن تركة الفقيد كانت تحتوي على نسخة بخط الفقيد عند الشيخ يس الزواف فاتصلت بحضرته فنفى لي ذلك . والنسخة الموجودة على ما بها من أخطاء كثيرة ـ أساسها في الغالب جهل الناسخ ـ تعد مرجعاً ذا قيمة لدراسة معالم دمشق من الوجهتين التاريخية والأثرية . والشيخ بدران عدا ذلك مختصر لكتابه المنادمة كانت توجد منه نسخة وحيدة بدائرة أوقاف دمشق اختفت أخيراً كما علمت بالمكتبة الظاهرية بدمشق . والشيخ كتاب آخر مطبوع هو تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر .

(٣) هو الشيخ عبد القادر العلموي المتوفى ٩٨١ هـ وقد اختصر كتاب الدارس للنعيمي والنسخة التي اعتمدت عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق وبالمكتبة التيمورية بالقاهرة نسخة أخرى من هذا الكتاب . وقد ترجمه الى الفرنسية مسيو سوفير ونشره تباعاً بالمجلة الآسيوية من ١٨٩٤ الى ١٨٩٦

يجيبهم خوفاً من سوء العاقبة ساروا الى برج الصفر وتردد الرسل بينهم ... »

وانتهى الأمر بأن خلع الملك السعيد نفسه في ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٨ [1] ... وملك الأمير بيدمر الظاهري نائب الشام واعتقل بالقلعة عند نائبها وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدواداري وأحبط على أموال نائب الشام وحواصله وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الاشقر في أبهة عظيمة . إلخ

وقال في الشذرات [2] : وقد حبس مرة ثم أطلق فلبس عمامة مدورة وسكن بمدرسته عند الجسر الابيض وتوفي في ربيع الأول سنة ٧٠٠ هـ ودفن بتربته . اهـ

المدارس العزية بالصالحية

اذا كان الاستاذ أسعد يبحث عن أية تربة تسمى العزية ليضعها بمحلة الجسر ويقول هذه هي التي عناها ابن عبد الهادي فقد كانت أمامه تربة عزية أخرى بالصالحية ربما كانت إحداهما أسبق بأن يختارها لأنها في منتصف [illegible] عبد الهادي ، وهذه الأخرى التي تقع فيها التربة العزية البدرانية الحنفية التي اختارها حضرته

وهذه التربة العزية التي نعنيها هي التربة العزية الأيدمرية الأولى بمحلة السكة لصاحبها الأمير عز الدين ايدمر بن عبد الله الملكي الصالحي . توفي بالقلعة سنة ٦٦٧ هـ ودفن بتربته بالقرب من المدرسة اليغمورية .

وهناك تربة عزية أخرى بالصالحية (بالسفح) انشأها عبد العزيز بن منصور بن وداعة الصاحب عز الدين الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ . وله تربة ومسجد بقاسيون بالصالحية ويسمى مسجده مسجد الحلبي او الخشبين .

وثمة تربة عزية ثالثة بالصالحية أيضاً كانت تقع بمنطقة الحواكير بالمهاجرين — صالحية هي التربة العزية الايبكية الحموية للامير عز الدين ايبك الحموي المتوفى سنة ٧٠٣ هـ

***

فهذه التربة العزية جميعاً بنافيها التي بالجسر والتي بالأفرم عدتها خمس تربة تخير منها الأستاذ أسعد تلك التي بالأفرم ضارباً صفحاً عن تحديد المؤلف موضعها بمحلة الجسر ثلثا منه انها هي وحدها التي يمكن أن يطلق عليها اسم مدرسة لأن واقفها «وقف فيها درساً ومكتبة» . والحقيقة ان المدارس والربط والخوانق ودور الحديث ودور القرآن والزوايا كانت

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تاريخ ابن كثير « البداية والنهاية » مجلد ١٣ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ حوادث ٦٧٨

(٢) انظر شذرات الذهب في اخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ـ ٥ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧

جميعها معاهد دين ودرس وعبادة علاوة على ان بها مدافن خاصة لأصحابها وكذلك يمكن أن يعد من هذا القبيل التربة التي كان يبنيها أصحابها ليدفنوا فيها فقد كانوا يقفون عليها الكتب والأوقاف الدارة للتعليم وتلاوة القرآن الكريم وعبادة الله . فلم تكن المدرسة العزية البدرانية الحجرية التي اختارها الاستاذ أسعد هي وحدها التي أوقف عليها درس ومكتبة وفيما يلي بعض الأمثلة على ما نقول :

اولاً : تربة العيني : الملاصقة لتربة عصمة الدين خاتون والجامع الجديد بالصالحية قبلي المدرسة الجهاركسية بزقاق المقدم والدلامية أنشأها الخواجة ابو بكر بن العيني ثم أوقف عليها ولده عبد الرحمن بن العيني اوقافاً ورتب في الايوان مدرساً . وعشرة من الفقراء ووقتاً في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا احنافاً ووقف كتبه عليها ... الخ

ثانياً : التربة البزورية : بسفح قاسيون . فوق سوق القطن أنشأها محفوظ بن معتوق البغدادي المعروف بابن البزوري وأوقف عليها كتبه . وكان تاجراً سرياً وعدتاً جمع تاريخاً جعله ذيلاً على المنتظم في تاريخ الامم للحافظ بن الجوزي وتوفي سنة ٦٩٤ ودفن بها .

ثالثاً : التربة البهنسية : بسفح قاسيون . بناها المجد البهنسي وزير الملك الاشرف توفي سنة ٦٢٨ . . . ودفن بتربته وكان قد أجرى عليها أوقافاً جيدة دارة وجعل كتبه وقفاً عليها .

وكل من يطلع على كتاب ابن عبد الهادي يعرف ان أكثر المساجد الموجودة به يمكن أن تسمى تربا أو مدارس ويندر أن يشيء أحد الناس في ذلك العصر مؤسسة خيرية للتعليم والعبادة إلا ويبني له فيها مدفناً خاصاً حتى تحل عليه بركة العلم والقرآن الذي يتلى فيها ودعاء من ينتفع بخيرها .

***

وخلاصة القول أن المدرسة العزية بالجسر التي يعنيها ابن عبد الهادي هي مدرسة (ورباط وخانقاه وتربة) عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ . وليست العزية البدرانية الحجرية التي يذكرها الاستاذ أسعد بهامش رقم ٣ بصفحة رقم ١٥٥ إذ أن هذه الأخيرة تقع بمحلة الأهرام وهي محلة أخرى غير محلة الجسر الأبيض .

القاهرة نصير محمد سهيب